قصة قصيرة

واستيقظ الضمير

للأديب الهندي : سيد نويد أختر زيدي

ترجمة: د . سمير عبدالحميد
مصر

مرت سنوات طويلة لم تقع عيناي عليه، لهذا لم أصدق نفسي حين وجدته أمامي .. هل هو حقا صديقي الحميم رضا حميدي بشحمه ولحمه !! بجسمه القوي المتين، وقامته الطويلة؟

لم أصدق نفسي بعد أن رأيت هيئته تلك، كم تغير رضا حميدي! كانت لحيته منفوشة، وشعر رأسه منكوشا غير منظم .. يبدو أنه يعاني من مرض ما، لا بد أن الحياة لم تمض على هواه، أو ربما واجه مشكلة، أو تعرض لحادثة قلبت حياته رأسا على عقب، وغيرت من هيئته التي عهدته عليها..

يا تُرى أي حادثة تلك؟!

كان القطار يمضي بسرعة، ينهب الأرض، ويقطع المسافات، متجها إلى محطته، بينما جلس رضا حميدي في المقعد المقابل، يغط في نوم عميق، لا يدري بما حوله، وعندما كان القطار يمر بمحطة صغيرة، يوشك على الوصول إلى مدينتي، سيطرت عليّ مشاعر الحيرة والارتباك : أأوقظه أم أتركه ؟ وزاد في حيرتي وارتباكي أن حالته كانت متردية للغاية، فأنا أعرف أنه لم يكن له في هذه الدنيا - بعد الله - غير والده، كان يحب أباه حبا جما، فقد كان يردد على أسماعنا دائما حكايات عن أبيه، بينما كنا ننصت إلى أحاديثه بشغف، لا نشعر بمرور الوقت، وهو يعبر بقصصه تلك عن حبه وعشقه لأبيه، وكان يمتاز بشيء فريد، وهو أنه لم يكن يحتمل أو يقبل الغلط، ولا يوافق عليه أبدا، وإذا ما رأى خطأ ما حاول إصلاحه بأي شكل، وحاول أن يجد له حلا سليما، وهكذا التف حوله جميع طلبة الكلية، واختاروه زعيما لهم، بعد أن شكلوا جمعية أطلق عليها اسم «جماعة شباب الكلية» وهكذا كان الطلاب إذا ما واجهتهم مشكلة ما، ثاروا وقدموا مطالبهم في ظل قيادة رضا حميدي، وكانوا يحصلون دائما على مطالبهم .. في تلك السنة زادت مصاريف الكلية فجأة، وكنا في السنة النهائية، لكن الطلاب الذين سيعانون هم طلاب السنوات الأولى، ومن هنا قامت «جماعة شباب الكلية» بمقاطعة الدروس، احتجاجا على زيادة المصروفات، وقرروا الاستمرار حتى تلبي إدارة الكلية مطالبهم، وخسرنا كثيرا نتيجة لمقاطعة الدروس، لكننا كنا مضطرين على ذلك، في وقت لم تحرك فيه إدارة المدرسة ساكنا.

حاولت إفهام رضا حميدي:

- يا أخي إن مقاطعة الدروس خسارة لنا، علينا البحث عن طريق آخر.

فابتسم وهو يجيبني تماما كما توقعت قائلا:

- يا صديقي بالتأكيد في هذه خسارة، لكنها خسارة بسيطة إذا ما قورنت بالضرر الشديد الذي يقع على الطلبة الفقراء، فكر بنفسك في الأمر، كيف سيتعلم الطلابُ الفقراءُ المساكين، هؤلاء الطلاب المجتهدون الأذكياء سيحرمون من التعليم لا لشيء إلا لأنهم لا يملكون نقودا، وسيقتصر التعليم على الأغنياء فقط، وحين يصير هؤلاء أطباء ومهندسين أو قادة للبلاد فلن يكون ذلك بسبب كفاءتهم بل سينالون هذه المناصب مرورا على جسر الثروة، أما من هم على شاكلتنا، فلك أن تقدر بنفسك مصيرهم، يجب أن نمنع الضرر...

كان دائما يتكلم، بينما أظل أنا صامتا أستمع إليه ..

استمرت مقاطعة الدروس أسبوعا متواصلا، ولم يجد جديد في الأمر،ففكر رضا حميدي في خطة جديدة .. الخروج إلى الشوارع.

وهكذا خرج جميع طلاب الكلية تحت قيادة رضا حميدي في مظاهرة عارمة، وأغلقت الشوارع، وارتفعت الهتافات ضد عميد الكلية، عندئذ طلب العميد - لأول مرة- حميدي إلى مكتبه، ظل يتحدث معه لفترة طويلة، وحين خرج حميدي من المكتب شاهدنا على شفتيه بسمة الانتصار.. لقد أجيبت مطالبنا، وتم تخفيض المصروفات بنسبة ٧٥٪ .

إن الوقوف في وجه الظلم، ورفع الصوت عاليا ضد أي خطأ هو أمر طيب، لكن إلحاق الضرر بالآخرين في سبيل ذلك لم يكن يلقى ترحيبا مني، ولم يكن يعجبني أبدا، وهذا ما رددته على مسامع حميدي، فكان يرد عليّ مقدما الدليل تلو الآخر، عارضا حججه، حتى أسكت رغم أنني لم أكن أتفق أبدا مع حججه وآرائه،كان بين أفكاري وأفكاره بون شاسع، لكننا إذا ما تناقشنا في أمر ما كان هو الفائز دائما، وكان يسخر مني قائلا:

- يا صديقي اترك هذا الكلام القديم، فنحن لسنا في زمن المثاليات، ففي هذا الزمن لا يمكن للمثاليات أن تؤدي إلى نتائج واقعية.

وينتهي النقاش عند هذا الحد!

وتمر الأيام وتفاجئنا الامتحانات، ثم تظهر النتيجة بعد شهر، نلنا معا أعلى الدرجات وكانت تقديراتنا مرتفعة، ثم أخذ كل منا طريقه بعيدا عن الآخر، ذهبت إلى مدينة أخرى للحصول على دبلوم في الصحافة، وعرفت بعدها أنه احترف الصحافة . .

فجأة قطع حبل تفكيري صوت رضا حميدي القوي ..

وقف رضا حميدي أمامي، يتطلع إليّ في حيرة.. ثم تعانقنا في حب عناقا طويلا، أخذنا نتذكر ونسترجع القصص والحكايات القديمة .. لكن يا ترى .. لماذا لا أجد في نبرات صوته الوقار القديم ؟! أشعر أنه لا يريد أن يفرض رأيه أو يجعلني أوافق عليه،لا يرغب أيضا في ذلك ! في لهجته مسحة من ألم .. لا بد أنه محطم من داخله، وفي النهاية وضعت يدي على موضع الألم ..

- رضا حميدي ! هل أخبرك بشيء ؟ لم تعد رضا حميدي الذي عرفته من قبل .. عيونك الذابلة .. هذه العلامات .. هيئتك هذه تدل بالضرورة على أنك تعرضت لحادثة ما ثم ..

كانت في عينيه دموع ..

- شاء الله أن يغيرني .. يجعلني أشعر بالذل، أنهزم .. لا أدري ماذا كان يقول .. فبقيت صامتا أنصت إلى كلامه ..

- كنت دائما ألجمك بكلامي وحججي، وكانت هذه أكبر غلطة ارتكبتها، لم أستمع أبدا إلى كلامك، ولم أقدره، بل كنت دائما أصرف النظر عن كل ما كنت تقوله لي، ليتني استمعت إليك .. لا أزال أتذكر جيدا حتى الآن ذلك اليوم المنحوس حين خرجنا نحن الصحفيين في مظاهرة ضخمة، نعلن عن مطالبنا، تأثرت حركة المرور إلى حد ما بسبب هذه المظاهرة، واستمرت المظاهرة حتى أذعنت الحكومة لمطالبنا .. ففرحنا بما حققناه، ورجعت إلى بيتي منتشيا، وحين وصلت إلى البيت، كان كل همي